مجلة المعيار
AL-MIEYAR Journal
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/317

المجلد: 13 /العدد: 01 (جوان 2022)

المـعيار

مجلة نصف سنوية متعددة التخصصات، مصنفة " C "

شروط النشر وضوابطه

–المعيـار مجلـة علميـة محكمـة تنشـر البحـوث الأكاديميـة والدراسـات الفكريـة والعلميـة والأدبيـة الـتي لم يسـبق نشـرها مـن قبل.

– دورية تصدر مرتين في السنة عن جامعة تيسمسيلت. الجزائر.

– تُقبل البحوث باللغات العربية والفرنسية والانجليزية.

–ضرورة وجود مختصر أو تمهيد للمقال سواء باللغة العربية أو الأجنبية.

– تخضع البحوث والدراسات المقدمة للمجلة للشروط الأكاديمية المتعارف عليها.

– تخضع البحوث للتحكيم من طرف اللجنة العلمية للمجلة.

– تُقـدم البحـوث والدراسـات مكتوبـة في ورقـة علـى مقـاس (**21/29.7**) بهـامش **1.5**سـنتيم عـن يمـين الصـفحة وعـن يسارها وهامش **1.5** سنتيم عن أعلى الصفحة وأسفلها.

– تتم الكتابة بخط (**Traditional Arabic**) حجم (**16**)، وفي الهامش بالخط نفسه حجم (**14**).

– تـتم كتابـة البحـوث كاملـة أو الفقـرات والمصـطلحات والكلمـات باللغـة الأجنبيـة داخـل البحـوث المكتوبـة باللغـة الفرنسية بخط (**Times new roman**) حجم (**12**)، وفي الهامش بالخط نفسه حجم(**10**).

– تكون الهوامش والإحالات في آخر الدراسة ولا يستعمل فيها التهميش الأوتوماتيكي.

– يُقدم البحث في قرص مضغوط ونسخة ورقية مطبوعة.

– لا يقل حجم البحث عن **10** صفحات ولا تتجاوز **15** صفحة.

– الأعمال المقدمة لا تُردّ إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

– المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها، والمجلة غير مسئولة عن آراء وأحكام الكتاب. كما أن ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات تقنية وفنية.

المدير المسئول عن النشر

أ. د. عيساني امحمد.

المعيار

المجلد الثالث عشر العدد 1 جوان 2022
مجلة نصف سنوية متعددة التخصصات
مصنفة " C "
تصدر عن جامعة تيسمسيلت – الجزائر
توجه جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
عن طريق البوابة الإلكترونية www.asjp.cerist.dz

جامعة تيسمسيلت . الجزائر.
الهاتف/الفاكس : 046573188
البريد الإلكتروني: www.cuniv.tissemsilt.dz

EISSN 2602-6376 ISSN 2170-0931

رئيس المجلة:
أ. د. دهوم عبد المجيد
المدير المسؤول عن النشر:
أ.د. عيساني امحمد
رئيس التحرير:
أ.د. مرسي رشيد.
نائبا رئيس التحرير:
أ.د. علاق عبد القادر، د. دهقاني أيوب
سكرتير المجلة:
عرجان نورة
هيئة التحرير:
د. محي الدين محمود عمر د. بن رابح خير الدين، د. بوسيف إسماعيل، أ.د. شريط عابد، ، أ.د. روشو خالد، أ.د. سعايدية الهواري،
الهيئة العلمية:
من جامعة تيسمسيلت: أ.د. غربي بكاي، أ.د. شريف سعاد، د. يعقوبي قدوية، أ.د. مرسلي مسعودة، أ.د. بن علي خلف الله، أ.د. رزايقية محمود، أ.د دردار البشير، أ.د. فايد محمد د. بوغاري فاطمة، أ. د. بوزيان أحمد، **من جامعة صفاقس، تونس:** أ. د. عبد الحميد عبد الواحد، د. بوبكر بن عبد الكريم، **من جامعة المنصورة، مصر:** د. محمد كمال سرحان، **من جامعة طرابلس، ليبيا:** د. أحمد رشراش، **من الجامعة الأردنية، الأردن:** أ. د صادق الحايك، **من جامعة الجزائر 03، الجزائر:** د. فتحي بلغول، **من جامعة لمين دباغين، سطيف:** أ. د بوطالبي بن جدو، **من جامعة وهران:** أ. د. مختار حبار، **من جامعة سيدي بلعباس:** أ. د. محمد بلوحي، **من جامعة سعيدة:** د. عبد القادر رابحي، **من جامعة تلمسان:** أ. د. محمد عباس، أ. د. عبد الجليل مرتاض، **من جامعة تيزي وزو:** أ. د. مصطفى درواش، **من جامعة مستغانم:** د. منصور بن لكحل، **من جامعة زيان عاشور، الجلفة:** د. حربي سليم، **من جامعة حسيبة بن بوعلي، شلف:** أ. د حفصاوي بن يوسف، أ. د مويسي فريد، أ.د. بوراس محمد، أ.د. علاق عبد القادر، أ.د. روشو خالد، أ.د. مرسي مشري، أ.د. لعروسي أحمد، د. قزران مصطفى، أ.د. محمودي قادة، د. عيسى سماعيل، د. ضويفي حمزة، د. كروش نور الدين، د. بوكرديد عبد القادر، د. عادل رضوان. **من جامعة ابن خلدون تيارت:** أ. د. عليان بوزيان، أ. د. فتاك علي، أ. د. بو سماحة الشيخ، أ. د. بن داود إبراهيم، أ. د. شريط عابد. UNIVERSITIE PAUL SABATIER TOULOUZE 03. FRANCE: CRISTINE Mensson.

كلمة مدير النشر

أيها القارئ الكريم:

يسرّ أسرة مجلة "المعيار المصنفة (C)" التي تصدر عن جامعة أحمد بن يحي الونشريسي بتيسمسيلت أن تقدّم إليك العدد الأول من المجلد الثالث عشر وهي إحدى قنوات الجامعة العلمية، وقد اكتسبت مجلتنا قيمتها العلمية ومكانتها الأكاديمية بما تتّسم به من مواصفات علمية وكذلك بفضل مجالاتها البحثية المتنوعية.

- تضمّ لجنتها العلمية أسماءً لها وزنها العلمي في الوسط الجامعي، من داخل وخارج الوطن.
- تنوّع اختصاصات أعضاء لجنة القراءة، إذ تراوحت بين الأدب، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والحقوق والعلوم السياسية، الاقتصاد، والنشاطات الرياضية والبدنية، واللغات.
- تنوّع تخصّصات أبحاث العدد إذ جاءت موزّعة بين اللغة والأدب والنقد، والعلوم الإنسانية، والحقوق والعلوم السياسية، الاقتصاد، والنشاطات الرياضية والبدنية، واللغات.
- تمنح المجلة فسحة للمقالات المترجمة، وللأبحاث الأجنبية (الفرنسية والإنجليزية).

وتجدّد أسرة المجلّة دعوتها لكلّ الباحثين بالالتفاف حول هذا المنبر الأكاديمي بمساهماتهم العلمية، ولهم منّا كل التقدير والعرفان.

المدير المسؤول عن النشر

أ. د. عيساني المُحَمَّد

فهرس الموضوعات

Ethnic Borders and Identity Politicization in Algeria **شيخاوي أحمد**، جامعة سعيدة (الجزائر).	20-09
التنمر الوظيفي في القطاع الصحي **ملال خديجة، ملال صافية، مدوري وردة**، مخبر البحث في علم النفس وعلوم التربية- جامعة وهران2 (الجزائر)	35 -21
الأدب النسوي الجزائري: اضطراب المصطلح وفاعلية الحضور **قردان الميلود** ، جامعة تيسمسيلت (الجزائر).	45-36
المورد البشري وتحديات التغيير التنظيمي **مصطفى حاج الله،عبد الفادر جراد ،جامعة يحي فارس المدية** (الجزائر).	63-46
أهمية تطوير الشراكة الاقتصادية الجزائرية التركية لبناء تكامل إقليمي **سلطاني محمد رضا**، جامعة تيسمسيلت (الجزائر).	77-64
سبل ترقية الاستثمار السياحي الوطني **زلاطو نعيمة، .سدواي نورة، حداشي حكيم**، جامعة تيسمسيلت، المركز الجامعي البيض، جامعة تيارت (الجزائر).	100–78
نظرة محمد العربي زبيري لواقع المدرسة التاريخية في الجزائر من خلال المصادر المطبوعة والالكترونية. **سعيد جلاوي**، جامعة البويرة (الجزائر).	117-101
دراسة تنميطية لعينة من المصابيح المكتشفة بالموقع الأثري ملاكو (ولاية بجاية) **دموش سميرة** ، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2 (الجزائر).	139-118
ذاكرة الصحراء: حوار بين السردي والتاريخي من خلال "رواية تفاحة الصحراء" لمحمد العشرى. **بلقاسم بعزيز، عمر بن دحمان.** جامعة، تيزي وزو، (الجزائر).	147-140
الطلاق العاطفي قراءة في الأسباب والمظاهر وطرق التدخل **بوشريط نورية**، جامعة تيارت (الجزائر).	160-148
منظور الزمن وتأثيره على تبني استراتيجية مواجهة الضغوط النفسية في ظل وباء كورونا دراسة مقارنة بين طالبات الجامعة المصاب أحد آبائهن بكوفيد 19 وغير المصابين به **عيسى رمانة، خالد بن عيسى**، جامعة الوادي، جامعة تلمسان (الجزائر).	189-161
Literature reviews in sociological research **Toual Abdeleaziz,** University of Djelfa, Algeria ،**Toumi Belkacem** ،**Kheiri Nouh**	199-190
تأثير الضغوط النفسية على أداء التلاميذ المتفوقين رياضيا أثناء عملية الإنتقاء في الرياضة المدرسية من وجهة نظر أساتذة التربية البدنية والرياضية في التعليم الثانوي. **سي العربي شارف**، مخبر القياس والتقويم، جامعة تيسمسيلت (الجزائر).	217-200
تباين السلوك الإنجابي بين المناطق الجغرافية في الجزائر من خلال قاعدة بيانات المسح الوطني العنقودي السادس متعدد المؤشرات. شهرزاد طويل، جامعة تلمسان (الجزائر).	238-218
المورد البشري وفعالية المنظمة **زروق عليلي، عبد الستار السحباني**، جامعة تونس العاصمة (تونس).	253-239
توظيف مؤشرات تصنيف ويبومتركس في تحسين ترتيب الجامعات	270-254

راشدي عبد المالك، فارس شاشة، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر 2 (الجزائر)	
إسهام علماء المسلمين في ميدان علوم الطبيعة والحياة –نماذج من أدب التأليف والتصنيف - رمضاني حسين، جامعة تيارت (الجزائر).	283-271
واقع جرائم الجنس اللطيف: تحليل سيميولوجي لصور من عمق المجتمع. لكحل صليحة، جامعة تيمسيلت (الجزائر).	298-284
Women's Enabling Strategies in Algerian Non-Governmental Organisations: Religion Strategy. **Dieb Siham, Benneghrouzi Fatima Zohra,** Mostaganem University (Algeria)	299-307
المعاملة الوالدية وعلاقتها بالسلوك العدواني لدى الأطفال ذوي الإعاقة الذهنية القابلين للتعلم، برحايل وهيبة، عتيق منى، جامعة عنابة (الجزائر)	308-324
متلازمة الدور القبلي والمذهبي في النزاع اليمني أحمد عبدالباقي مقبل الفقيه ، جامعة عنابة (الجزائر)	337-325
وجوه الإعجاز القرآني عند الإمام ابن عطية ياسع لخضر بن ناصر ، عبد الحميد الدايم، مخبر الدراسات الشرعية، جامعة تلمسان (الجزائر)	350-338
أدوات العطف بين التصور اللساني والبعد الحجاجي تجاني حبشي ، جامعة الجلفة (الجزائر)	363-351
إحصائيات زوار المتحف العمومي الوطني سطيف في ظل فيروس كوفيد 19 (دراسة تحليلية). رزقي فهيمة ، جامعة قسنطينة2 (الجزائر)	372-364
مساهمة الجباية البترولية في التنمية الاقتصادية بالجزائر في ظل تقلبات أسعار البترول خلال الفترة 2000-2019 باستخدام تحليل المسار. بربار حفيظة ، بولومة هجيرة ، جامعة سعيدة (الجزائر)	386 -373
النشر العلمي في البوابة الجزائرية للمجلات العلمية ASJP بين الإستخدام والإتاحة : الأساتذة الباحثين بجامعة الجلفة أنموذجا. المهوب كسكس، زينب بن الطيب، جامعة باتنة 1 (الجزائر)	402 -387
تشخيص واقع خصائص المنظمة المتعلمة في جامعة المدية من وجهة نظر الأساتذة الباحثون هاجر تزغوين، رشيد سالمي ، جامعة المدية، جامعة تمنراست (الجزائر)	421-403
مهارات التفكير الميتامعرفي وعلاقتها باكتساب المعارف لدى طلبة معاهد التعليم والتكوين المهني -دراسة ميدانية-. لعزيلي فاتح ، بن نويوة سعيد، جامعة البويرة (الجزائر)	431 -422
صناعة الزربية التقليدية ودورها في تفعيل التراث الثقافي في الجزائر -دراسة ميدانية بمنطقة قلعة بني راشد بولاية غليزان – بلفوضيل نصيرة، صفاح أمال فاطمة الزهراء، مخبر الدراسات الشرعية، جامعة تلمسان (الجزائر)	443-232
محركات الإغراء السردي في رواية كاماراد للكاتب الصديق حاج أحمد. نوال بومعزة ، جامعة الوادي (الجزائر)	455-444
أزمة معبر الكركرات وتداعياتها على مسار التسوية الأممية في نزاع الصحراء الغربية 2020-2021. أسامة بوشماخ ، جامعة تيسمسيلت (الجزائر)	466-456
فن السخرية وتجلياته في مسرحية الفيل يا ملك الزمان لسعد الله ونوس. عمر كشيدة ، نجلاء نجاحي، جامعة ورقلة (الجزائر)	479-467

المرافق الترفيهية والترويحية في ولاية جيجل بين الواقع والمأمول. مدينة العوانة أنموذجا. **عمر بوسكرة ، سليمة عبد السلام، سليمة بوخيط** ، جامعة المسيلة (الجزائر)	**496-480**
آفاق الانتقال والتحول الديمقراطي في تونس بعد 2010. **نش حمزة** ، جامعة تيسمسيلت (الجزائر)	**510-497**
آفاق الانتقال والتحول الديمقراطي في تونس بعد 2010. **نش حمزة** ، جامعة تيسمسيلت (الجزائر)	**525-511**
بنية الفكر الاستشراقي في روايات أمين معلوف "رحلة بالداسار نموذجا": **إبراهيم بوخالفة**، المركز الجامعي – **تيبازة**	**540 - 526**
La professionnalisation du métier d'enseignant the professionalization of the teaching profession **Hammoudi nabil**, universite badji mokhtar.. Annaba, **boudechiche nawal** université chadli bendjedid. El-tarf.	**551 -541**
قراءة في اتفاقية تريبس (TRIPS) **ربحي امحمد** ، جامعة تيسمسيلت، **لعروسي أحمد**، جامعة تيارت	**568/ 552**
Le potentiel touristique en Algérie entre la réalité et les attentes Tourism potential in Algeria between reality and expectations c-u Université Ali lounici, Blida 02, **Khelifi amina Nadia rouchou**, morseli abdellah tipaza.	**591 -569**
بناء الحدث في رواية "دمية النار" لبشير مفتي **شريط جميلة**، جامعة، تيسمسيلت	**601 - 592**
عتبات الشواهد النصية عند الإبراهيمي معلمة للاتقاء وملحمة للارتقاء **فوزية عزوز**، المركز الجامعي مغنية	**615 - 602**
الأسواق في فترة مابعد تخفيف قيود التباعد الإجتماعي في الجزائر- دراسة أنثروبولوجية بالسوق الاسبوعي لوادي أرهيو **ميداني قدور**، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ،علم الإنسان والتاريخ CNRPAH	**630- 616**
عمارة المساجد في المغرب الأوسط بين القرنين 2-3 هـ/ 8- 10م **مزردي فاتح**، جامعة البليدة 2	**644 - 631**
تقويم محتوى التعبير الشفوي وفق المقاربة النصية- دراسة ميدانية- الثالثة ثانوي أنموذجا **شامي مليكة**، جامعة، وهران 01، **عبد الكريم بكري**، جامعة، وهران 01	**663 - 645**
الدور التربوي للأسرة الجزائرية في تحقيق الأمن المجتمعي على ضوء تحديات العولمة الثقافية **أمينة زرداني**، جامعة سطيف 2، **رضا شوادرة**، جامعة سطيف 2	**678 - 664**
ظاهرة الاغتراب في الشعر الجاهلي **بولعشار مرسلي**، جامعة تيسمسيلت، **بوشيبة حبيب**، جامعة غليزان	**689 - 679**
الحاجات النفسية لدى الطالب الجامعي في ضوء نظرية التقرير الذاتي قسم العلوم الاجتماعية جامعة أم البواقي **هبازة مروى**، جامعة سطيف 2، **بوصلب عبد الحكيم** جامعة سطيف 2	**704 - 690**
بطاقة الأداء المتوازن كآلية لتقييم الأداء في المؤسسة الاقتصادية - دراسة ميدانية لمؤسسة صوفاكت	**730 - 705**

(تكسالج) للأغطية النسيجية بتيسمسيلت **ربحي فاطمة**، جامعة خميس مليانة، **زنيني فريدة**، جامعة خميس مليانة	
الخطاب الدّيني الإسلامي والحداثة بين التصادم والتوافق **عمر داود**، جامعة - تيارت	**744 -731**
ثنائية اللغة والهوية في أدب المنفى **بن بغداد أحمد**، جامعة، تسمسيلت	**758 - 745**
قراءة التراث لدى المفكرين العرب من منظور حداثي **ناجي نادية**، جامعة تيسمسيلت	**774 -759**
واقع الهجرة غير شرعية في الجزائر2010-2018 **جمال بن مرار**، جامعة خميس مليانة	**794 -775**
البيئة الرقمية: النظريات الإعلامية والميديا الجديدة **بن راشد رشيد**، جامعة وهران2، **بلحاج حسنية**، جامعة وهران2	**806 - 795**
الخرافات نصوص أدبية عابرة للغات والآداب **فتح الله محمد**، **جامعة تيسمسيلت**	**821 - 807**
الخطاب الروائي المعاصر الرؤيا والتحوّل **يعقوبي قادوية**، جامعة تيسمسيلت	**835 - 822**
إدارة التوافق السياسي وبيئة التحول الديمقراطي في تونس: 2011-2017 **لرقط الحسين**، جامعة المسيلة، **بلعباس عبد الحميد**، جامعة المسيلة	**856 -836**
الصحة النفسية وسبل تحقيقها من منظور علم النفس الايجابي في ظل جائحة كورونا **بلخير فايزة**، جامعة غليزان	**871 - 857**
علاقة المضامين الإعلامية بالتنشئة الاجتماعية الأسرية **بتقة ليلى**، جامعة المسيلة	**888 - 872**
الأستاذ الجامعي: قراءة في العلاقة بين الأدوار الحديثة في ظل معايير جودة التعليم العالي ومعوقات تحقيقها **بوغراف حنان**، **جامعة الطارف**	**910 - 889**
اللامركزية المحلية ودورها في ارساء الحكم الراشد بالجزائر **لوعيل رفيق**، جامعة الجزائر 3	**929 - 911**
النقد الثقافي وآليات القراءة والتأويل **بوسكين مجاهد**، جامعة معسكر	**953 - 930**
مساهمة الابتكارات البيئية في تغيير اتجاهات المستهلكين: شركة فورد أنموذجا **العبادي فاطمة**، جامعة المدية، **كشيدة حبيبة**، جامعة المدية	**977- 954**
الداعية الجزائرية المؤثرة في مجال خدمة القرآن الكريم عبر شبكات التواصل الاجتماعي (الفايسبوك) دراسة تحليلية لصفحة المقرئة راضية هلال **زكية منزل غرابة**، جامعة قسنطينة، **أحلام بوساحة**، جامعة قسنطينة	**991 - 978**
دراسة مقارنة بين الجري المتقطع (15/15) والألعاب المصغرة 4 ضد 4 على السرعة الهوائية القصوى لدى لاعبي كرة القدم أقل من 21 سنة	**1009 - 992**

قرومي الحسين، جامعة تيسمسيلت، **واضح أحمد الأمين**، جامعة تيسمسيلت، **خروبي محمد فيصل**، جامعة تيسمسيلت	
مقاربة سوسيولوجية للكتابات الحائطية- دراسة ميدانية لعينة من شباب منطقة بومرداس- **زعاف خالد**، جامعة البويرة، **حيتامة العيد**، جامعة جيجل	**1026 - 1010**
جريمة ترك الأسرة من منظور قانون العقوبات الجزائري والفقه الإسلامي **ليلى إبراهيم العدواني**، جامعة المسيلة	**1045 - 1027**
التراث المعماري الحي في الجزائر وسُبُل تثمينه وحمايته –خزان حديقة بارال سابقا بسطيف دراسة حالة- **صالح الدين بلقيدوم**، جامعة الجزائر 2، **محمد المصطفي فيلاح**، جامعة الجزائر 2	**1058 - 1046**
دور تقييم السياسة العامة في تجسيد الحكم الرشيد في الجزائر **حمادي مصطفى**، جامعة تيزي وزو، **عمروش عبد الوهاب**، جامعة بومرداس	**1075 - 1059**
مشكلات تلقي النحو العربي عند الناشئة متوسطة أحمد رضا حوحو (بسكرة) أنموذجا **فوزية دندوقة**، جامعة بسكرة، **فطومة لحمادي**، جامعة سوق أهراس، **شهيرة زرناجي** جامعة بسكرة	**1090 -1076**

مجلة المعيار
AL-MIEYAR Journal
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/317

المجلد: 13 العدد: (01) جوان 2022 ص.526/540

بنية الفكر الاستشراقي في روايات أمين معلوف "رحلة بالداسار نموذجا"

The structure of orientalist thought in the novels of Amin Maalouf A trip to Baldassar.

إبراهيم بوخالفة*

المركز الجامعي – تيبازة (الجزائر)

Boukhalfa.brahim@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ القبول: 2022/04/21
تاريخ النشر: جوان 2022

الكلمات المفتاحية
الاستشراق؛
الشرق؛ الصوة التمثيليّة؛ الصورة الرهابيّة؛ الآخر

الملخص

يتعامل الغرب منذ نشأته على أساس تفوقه الأبدي على الشرق العربي والإسلامي. ولقد نشأت أسطورة التفوق منذ عصور النّهضة الأولى، معززة من قبل المستشرقين والرحالة والانثروبولوجيين، الذين انتشروا في الشرق منذ القرون الوسطى، وراحوا يدرسون علوم العرب وآدابهم وعاداتهم وتقاليدهم، من أجل السيطرة عليهم لاحقا. ولقد تمّ تمثيل الشرقيين في روايات أمين معلوف تمثيلا دونيا، لا يخرج عن إطار الكليشيهات التي تتردد كثيرا في أرشيف الاستشراق الغربي، ومن أهم تلك الروايات التي أساءت تمثيل الشرقيين، رواية "رحلة بالداسار ." في هذه الدراسة نحاول دراسة الصور الرهابية التي مثلت الشرقيين، وأساب التحامل عليهم. لقد ولد أمين معلوف عربيا، يسكن منطقة عربية، فما الذي جعله ينساق وراء نمط تفكير استشراقي بالغ السوء؟ لماذا عجز عن التخلص من بنية الفكر الاستشراقي الغربي الحديث؟ تلك هي أهم محطات هذه الدراسة.

Article info

Accepted : 21/04/2022
publishing: june 2022

Keyword:
Orientalism; the East; representative voice; phobic image; the other;Keyword:

Abstract

The West has been dealing since its inception on the basis of its eternal superiority over the Arab and Islamic East. The myth of superiority arose since the times of the first renaissance, reinforced by orientalists, travelers and anthropologists, who spread in the East since the Middle Ages, and began to study Arab sciences, literature, customs and traditions, in order to control them later. Orientals were represented in the novels of Amin Maalouf inferiorly, not deviating from the framework of the clichés that frequently recur in the archives of Western Orientalism. In this study, we try to study the phobic images that represented the Orientals, and the reasons for prejudice against them. Amin Maalouf was born an Arab, lives in an Arab region, so what made him fall into a very bad orientalist thinking pattern? Why was he unable to get rid of the structure of modern Western Orientalist thought? Those are the main points of this study..

* المؤلف المرسل

. مقدمة:

أمين معلوف كاتب ومثقف فرونكوفوني من أصول لبنانيّة، ينتمي إلى الفئة المسيحيّة وهذا المعطى جعله أقرب إلى الغرب منه إلى الشرق، وهو الذي حدّد وجهته إلى فرنسا لما قرّر مغادرة لبنان فرارا من الحرب الأهليّة التي ألقت بالشرق الأوسط كله في حرب طويلة ومريرة بين الطوائف الدينية والاثنية التي تشكل النسيج الاجتماعي للمجتمع اللبناني. وفي الحقيقة فقد كانت فئات عريضة من اللبنانيين الذين فروا من الاضطهاد العثماني قبل سقوط دولتهم وقبل الحماية الفرنسية ترغب في اللجوء إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة أو إلى أمريكا اللاتينيّة أو إلى فرنسا. هنالك ألقى أمين معلوف بنفسه وكأنّه بين أهله وعشيرته، فسرعان ما اندمج في نمط الحياة الغربيّة، وسرعان ما تشبّع بقيم الغرب ذات الطابع الكوني، وسرعان ما أضحى من دعاة التعدد الثقافي ليتحوّل إلى إنسان كوسموبوليتي، أشبه بشخصيّته الأثيرة التي صنعها في رواية "موانئ المشرق، يندمج في المشروع التنويري للغرب.

وبالاطّلاع على رواياته التي تتّخذ من الشرق العربي موضوعاتها السرديّة تخطر بالبال جملة من الانشغالات البحثيّة نحاول معالجتها .

هل تمكن أمين معلوف باعتباره كاتبا عالمثالثيّا من ترميم صورة العرب والمسلمين المتصدّعة والمهتزة في مخيال الغربيين؟ وهل كان أصلا منشغلا بهذا الهمّ الإيديولوجي، أم أنّ الذي كان يهمّه هو الحيازة على مقام أثير ضمن المجتمع الغربي، والتّماهي معه إلى حدّ الذوبان، بفعل قوة الثقافة الغربية، وبلاغة خطاباتها؟

تلك هي أسئلة هذه الدراسة التي نروم الإجابة عنها مستعينين بما يوفره علم الصورة (Imagologie) من أدوات بحث ومساءلة للنصّ الأدبي الذي بين أيدينا. وسنعمد إلى رصد الصور الرهابيّة المندسّة في ثنايا الخطاب الروائي ونحلل دلالاتها بما يسمح بالإجابة عن أسئلة هذه الدراسة..

1- صورة الآخر في الغرب الحديث:

1-1-ترذيل الآخر:

إن الفوضى التي آلت إليها العلاقات الدوليّة اليوم بفعل تغوّل الغرب وحالات الاحتراب الملتهبة في أرض "البرابرة" –على حدّ تعبير تودوروف، في كتابه "الخوف من البرابرة"– والتي تقف من ورائها إرادة ميتافيزيقيّة مدمّرة، وكأنها مدفوعة الأجر من طرف آلهة العصر، وإنّ حالات المقاومة التي بدأت تبزغ هنا وهناك، بشكل بدائي ولكنه مستفحل بمرور الأيام، إنّ كل ذلك يعمل في الاتجاه المعاكس لمشروع التنوير غير المكتمل، هذا المشروع الذي انخرط فيه أمين معلوف، والذي على أساسه شكّل مواقفه النقديّة من الشرق المتخلف، من خلال إبداعاته الروائية الفذّة.

لا يزال الغرب يطور فكرة دونيّة عن العرب والمسلمين، من خلال وسائل الإعلام والدعاية، ومن خلال سردياته الأدبية وأشعاره، وفولكلوره. كما أنّ الصور التمثيليّة التي صنعها الرحّالة الغربيّون المحدثون، والمستشرقون المتورطون في الشرط الامبريالي، لا تزال تتعاظم في الوعي الجمعي للأوروبيين، وهي التي تحدّد بدرجات متفاوتة موقف الأوروبيين من العرب، ويتجلى ذلك من خلال الموقف من الهجرة باتّجاه المركز، والموقف من العمالة العالمثالثيّة.

إنّ سلسلة من النعوت التحقيريّة التي تدين العرب، والتي تروج في الحياة اليوميّة للغربيين، من مثل: "إرهابي"، "بربري"، "متوحش"، "فاجر"، "أصولي"، "رجعي"، ليستْ حقيقة خاملة في الثقافة الغربية المعاصرة، وليستْ وليدة لحظتها. إنما موجودة ثمّة في الطبقات التحتيّة لوعي الناس، في انتظار أن يهتزّ شارع تحت وقع انفجار، أو يحصل اعتداء بالسلاح الناري على أماكن عموميّة، فتنفجر مثل هذه الكليشيهات لتدلّ على أصحابها دون الرجوع إلى واقع الحال. لقد تعرّض إدوارد السعيد إلى مثل هذا النوع من الاضطهاد، بل أكثر من ذلك قد تعرض لتهديدات بالتصفية الجسديّة وأُحرِق مكتبه أكثر من مرّة، وسمّي "بروفيسور الإرهاب، فقط لمقاومته للإرهاب الإسرائيلي ولعنصراويّة الاستشراق الفرنسي والبريطاني على وجه الخصوص.

إنّ الثقافة التي كرّسها الاستشراق الغربي الحديث، لا تزال نافذة في وعي الناس، رغم أن العرب والمسلمين أضحوا دون مهابة وغير قادرين على التهديد أو حتّى مجرّد الإزعاج. فالعربي لا يزال يُصوّر على أنه البدوي الذي يقود الناقة في الصحراء، والذي لا يزال يرفض الحداثة الغربيّة كما يرفض عالميّة الغرب وتسيّده عليه. وهو بالتالي أشدّ رفضا لقيم الغرب التي تدّعي الكونيّة كحقوق المرأة وحقوق الإنسان والعَلَمانيّة والعِلمانيّة، والدّيمقراطيّة.

انطلاقا من هذا المعطى الراهن، فإن هذا العربي لا يزال من منظور استشراقي مصدر تهديد محتمل، فهو قادرٌ على استرجاع هويّته الدينيّة المفقودة، وإحياء أمجاده الغابرة، وذلك يؤهّله لمصادرة التفوق الغربي الساحق. ولا يخفي الأوروبيون انزعاجهم من سرعة انتشار الديانة الإسلاميّة في قلب العواصم الغربيّة، وتسلّلها إلى عقول النخبة العالمة هنالك. من أجل ذلك يحاول إعلاميوهم التّحقير من شأن مبادئ الإسلام وربطه بالإرهاب والتخلّف. وقد عبّروا عن ذلك من خلال الرسوم المسيئة للرسول عليه الصلاة والسلام، ومن خلال مراقبة الجمعيات الخيريّة، والنشاط في المساجد، والتّضييق على حركة الدّعاة في الغرب، ومحاصرة الدول العربيّة التي يهيمن عليها الإسلام السياسي.

2-1-النظرة المانويّة للشرق:

إذا كانت الأشياء لا تعرفُ إلاّ بأضدادها، وأنّ قيم الخير على سبيل المثال لا تَأخذ بعدها الحقيقي إلا بالتوازي مع قيم الشرّ وأنّ قيم الجمال لا تأخذ ألقها النّاصع إلا مقارنة مع قيم القبح، فإنه من الطبيعي أنْ يُعرضَ علينا الشرق في تضادّ وجودي مع الغرب، فهما على حدّ قول كيبلينغ لا يلتقيان، نظرا لكونهما جوهرين متناقضين، وأن وجود أحدهما يفترض زوال الآخر، أو اختزاله إلى وجود أقلّوي عديم الأثر. "وليس التفكير في الشرق من داخل هذه الثنائيّة التقاطبيّة إلاّ تفكيرٌ لا تاريخي وربّما ميتافيزيقي لأنّ مداره على كليّات مغلقة ومطلقة"(عبد الإله المقريزي، 2017، ص100) واعتباطيّة.

إنّ التفكير في الشرق ومقارنته من منظور المركزيّة الغربية ينطلق من فرضيات لا تاريخية مفادها أن الملونين هم من تركيبة بشريّة دونيّة، وأن دونيّتهم جوهرانيّة ويتعذّر تجاوزها من خلال التربية أو التدريب. فأنت إذا نقلت طفلا ملوّنا إلى بيت أوروبي أو أمريكي وعملت على تربيته وتعليمه مناهج التفكير الغربي فإنّه لن يتحوّلَ إلى ذات غربية، وسيبقى على طبيعته الموروثة، كما أنّ لون بشرته لن يتحوّل إلى الأبيض. وإنّ متوسّط ذكائه لن يتحسّن، بفعل البيئة الجديدة والتربية العلميّة المتاحة لدى الغرب.

إن هذه العقيدة التي تربط بين العرق والثقافة تستند إلى مقدّمات خاطئة، مفادها أن العرق الهندو-أوروبي هو أسمى الأعراق مطلقا، وأن الطبيعة حبتْه بكل مراتب الكمال الإنساني، وخوّلته السيطرة على الطبيعة وتحضير الشعوب المتخلفة. لقد "جرتْ العادة على إقامة معارضة بين الفكر الشرقي وبين الفكر الغربي انطلاقا من بضع خصائص كبرى. فالفكر الغربي تحليلي

وعقلاني، والشرقي تركيبي وحدسي، والغرب مشغولٌ بالسيطرة على الطبيعة، والشرقي بمعرفة النفس والتحكم بها؛ الغرب بروميثيوسي والشرق تأمّلي، الغرب ينادي بالمساواة، والشرق تراتبي"(إياد حسن، 2008، ص222)، واللافت في هذا التصنيف الثنائي الضدّي أنّه ينسب العقل والقدرة على التحليل، والمهارة العلميّة والحنوّ على النوع البشري إلى الغرب، بينما ينسب المعرفة الحدسيّة والتأمل العاطفي في العالم، والنظرة التراتبيّة للهرم الاجتماعي للشرقيين، والبون شاسعٌ بين الطّرفين، فكل ما يحوزه الغرب يؤهّله للسيطرة على الطبيعة وعلى العالم وكل ما في الشرقي يؤهّله لأن يتتلمذ على السيّد.

في المؤتمر العالمي الثاني للعلوم الجغرافيّة الذي عُقِد عام 1875 وحضره رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة وشخصيات أخرى فرنسية وبريطانيّة، " كشف خطاب لونوري الافتتاحي وجهة النظر السائدة: لقد حكمتْ العناية الإلهية علينا بواجب معرفة الأرض والقيام بفتحها. وهذا الأمر السّامي أحد الواجبات المحتّمة المنقوشة على صفحة عقولنا (سعيد إدوارد، 2004، ص230). تُذكّرنا هذه المحاججة بما قاله الرئيس الأمريكي المحسوب على اليمين المتطرّف، في العشريّة الأخيرة من القرن العشرين، من أن الإله هو الذي أمره بغزو العراق. هكذا يلجأ العقل الغربي إلى أسطرة التاريخ من أجل تبرير تدميرهم للآخر.

إنّ نظريات علم التشريح المقارن والفيلولوجيا التي أرسى دعائمها دو ساسي ورينان، باسم المعرفة العلمية قد قامت بالدّور الأهمّ في تسويغ احتلال الآخر. غير أنّ "المعرفة ليست بريئة لكنها ترتبط بعمق مع عمليات السلطة، (.....)، ممّا يظهر إلى أي درجة كانت المعرفة حول الشرق من حيث إنتاجها ونشرها شيئا إيديولوجيّا ملازما للسلطة الاستعمارية"(لومبا آنيا، 2007، ص54). لقد كانت العلوم الإنسانية والطبيعية التي تفجرت في الغرب أثناء عصر الأنوار وبعده متورطة في الشرط الامبريالي إلى حدّ النخاع، وكانت تبحثُ عن مسوّغ أخلاقي لاستعمار الشعوب خارج حدودها والالتفاف على ثرواتها. وبما أن هذه العمليّات المعقّدة والمكلّفة متعذّرة بالاعتماد على القوة العسكريّة وحدها، فإنه يتعين دعمها بهيمنة ثقافيّة لا شفاء منها.

ولذلك فإن نابليون بونابارت لما همّ بغزو مصر لم يحمل معه قوّة عسكريّة وإنما اصطحب قوّة علميّة في مختلف التخصصات، وعمد إلى قراءة كتب في وصف مصر والمصريين، وعمل بنصيحة المستشرقين الأوفياء للحكومة الاستعماريّة، وكان أول من استقبلهم على متن الباخرة، قبل القيام بأيّ إنزال بري، هم رجال الأزهر. لقد أنشأ خطابا وديّا كسب به قلوب الأزهريين، وطمأنهم أنه لم يأت لغزوهم، ولا لحربهم وإنما جاء لمساندتهم في خلافهم مع العثمانيين، ومن أجل تحديث مصر ونشر العلم والمعرفة، وأقنعهم أنه معجبٌ بالدين الإسلامي، ومعجبٌ بشخصيّة محمد صلى الله عليه وسلم.

إنّ المستشرقين الّذين انتشروا في مصر من أجل دراسة الشرق كانت لهم آراء تختلف عن هذا. إنهم لم يكونوا أفضل من زملائهم البريطانيين الذين سبقوهم في التمدّد خارج حدودهم، كما تفوّقوا عليهم في استعمار الشّعوب. إن المعرفة بدول وشعوب الشرق لم تكن بريئة، لأنّ الذين أنتجوها كانوا مطوّقين بالتاريخ والعلاقات الاستعماريّة والمصالح الامبرياليّة، وينطبقُ الأمر على المستشرقين وعلى الرحّالة وعلماء الانثروبولوجيا، ذلك العلم الذي خرج من رحم الاستعمار. "العلم الأوروبي الحديث هو أبعد من أن يكون حقلا موضوعيّا وغير إيديولوجي. كان متورّطا بعمق في بناء أساليب عنصريّة في التفكير حول الكائنات البشريّة والفوارق بينها" (لومبا آنيا، 2007، ص70). لقد كان علماء الغرب الذين تفرّغوا لدراسة الشرق ينطلقون من نظرة مانويّة لموضوع معرفتهم. لقد حدّدوا أهداف علمهم بشكل مسبق، وهي تأكيد تفوق الحضارة الغربية على الحضارات غير الأوروبية، وتأكيد تفوق الرجل الأبيض على الملونين بغض النظر عن قومياتهم وأعراقهم ومواقعهم الطبقيّة، والزمن الذي عاشوا فيه.

فالعربيّ متخلفٌ، وتفكيره ذري، وغير متقبّل للحداثة الغربيّة، بينما الأوروبي ذكي ومنظم وشمولي الفكر وصانعٌ للحداثة "والدقّة كريهة بالنسبة للعقل الشرقي، وعلى كلّ إنسان انجلو–هندي أن يتذكّر هذا المبدأ الأساسي. والافتقار إلى الدقّة الذي يتحلل بسهولة ليصبح انعداما للحقيقة هو في الواقع الخصيصة الرّئيسيّة للعقل الشرقي. الأوروبي ذو محاكمة عقليّة دقيقة، وتقريره للحقائق خال من أيّ التباس، وهو منطقي مطبوع، أمّا العقل الشرقي فهو على النقيض مثل شوارع مدنه الجميلة صوريّا (سعيد إدوارد، 2001، ص69). والعرب لم ينتجوا علما ولا فنا وثقافة جادّة، وكل ما لديهم هو فولكلور يُتَنَدّرُ به. ويذهب بعض المستشرقين البريطانيين أن رفّا واحدا في مكتبة ملكيّة أفضل من كل ما أنتجه العرب خلال كل تاريخهم.

في كلّ التراث الاستشراقي الفرنسي والبريطاني يقعُ التفكير في الشرق باعتباره النقيض الوجودي للغرب. "لقد استخدمت مصطلحات عديدة للتعبير عن هذه العلاقة. واستخدم بلفور وكرومر كما يُتوقَّع من مثلهما عددا منها. فالشرقي لاعقلاني فاسق، طفولي، مختلف. وبالمقابل فإنّ الأوروبي عقلاني متحلّ بالفضائل، ناضج وسويٌّ"(سعيد إدوارد، 2001، ص71/70). هكذا تُجمّعُ الطبيعة، هذه القوّة الميتافيزيقيّة العمياء كل الفضائل في الغرب وكل الرذائل توزّعها على غير الأوروبيين. ف"الشرقي بوجه أو بآخر، يتصرّفُ ويتحدّث ويفكّر بطريقة هي النقيض المطلق لطريقة الأوروبي"(سعيد إدوارد، 2001، ص70). وكونه كذلك يجعله في الدرك الأسفل من مراتب الوجود الإنساني من منظور الفكر الغربي المتمركز حول الذات

2–المركزيّة الغربيّة ومسوّغات التعالي:

2–1–مفهوم التمركز حول الذّات:

التمركز على الذّات الغربيّة، بدءا من القرون الوسطى، كردّ فعل على التّهديد الأجنبي، شكّل شخصيّة الأوروبيين المتعالية على آخريها، والمعجبة بقيمها إلى حدّ التعصّب الأعمى لثقافة الذّات. ولا تزال أوروبا إلى اليوم متوجسة من نهضة العرب المسلمين، واسترجاعهم لأمجادهم الغابرة. فصورة الإمبراطورية العثمانيّة الجاثمة على حدودها الشرقيّة لا تزال مصدر رهاب أوروبا، ولن تسمح بنهضتها إلاّ في شكلها العلماني، مجردة من مهابتها، فاقدة لأسلحتها.

يبدو من الأهمية بمكانٍ التعرّف على ظلال مصطلح المركزيّة، قبل الخوض في تحليل الإشكاليّة. لقد "استمدّ هذا المصطلح الإشكالي محتواه من الدلالة المباشرة للفظ (Egocentricité) التي تفترضُ غلبة وجهة نظر الذّات وصوابها، وهي متصلة بعالم الطفولة"(إبراهيم بوخالفة، 2018، ص55)، حيثُ يركّزُ الطفل العالم في أناه لأنّ مداركه العقليّة والعاطفيّة لا تنفتحُ على الآخرين إلا بقدر ما يكون هؤلاء مجموعة من العناصر التي تشتغلُ في إطار أفقه الذّاتي. إنه لا يفهم المحيط الاجتماعي خارج أفقه المحدود.

تعني مقولة المركزيّة الغربيّة من ضمن ما تعنيه اعتقاد الغرب أنه هو مركز العالم، وأن العالم يمكن اختزاله إلى أوروبا، تلك القارّة الموصولة بالأسلاف الإغريقيين في الحضارة والعلم والفضائل والنبالة. كما يعتقد أصحاب نظريّة التفاوت العرقي العنصريّة، من أمثال غوبينو وريتان ودوساسي أن العرق الهندو–أوروبي هو أشرف الأعراق وأنبلها، وأن الطبيعة لم تنتج لنا عرقا مكتملا بمثل ما هو حاصلٌ معه.

لقد تشكّلتْ عقيدة التمركز حول الذّات لدى الغرب الحديث كردّ فعل عنيف وعدائي ضدّ الخطر الذي شكّلته الامبراطوريّة الإسلاميّة على حوض المتوسّط، وعلى حدود أوروبا الشرقيّة. "كانت آسيا ذات يوم قد مثّلتْ بالنسبة لأوروبا النّأي والاغتراب الصّامتين؛ وكان الإسلام العدائيّة الهجوميّة بالنسبة للمسيحيّة الأوروبيّة"(إبراهيم بوخالفة، 2018، ص117). لعلّ الرهاب الذي

استشعرته أوروبا بسبب تعاظم هجوميّة الإسلام هو الذي أشعل الحروب الصّليبيّة وأمدّها بطول العمر. وهو الذي دفعهم إلى استعادة الأندلس إلى حضيرة البيت الأوروبي؛ وهي انتصاراتٌ ما كانت لتمرّ دون أن تترك أثرا على الوعي الجمعي للغربيين.

ومع واقعة غزو أمريكا والإبادة الجماعيّة لأصلانييها في مجازر لم يعرف لها التاريخ مثيلا، ومع عصور التنوير التي فجّرتْ العقل الغربي بشكل غير مسبوق، وأفرزتْ تحوّلات عميقة في الثقافة الغربيّة، ومع الثورة العلمية التي كنستْ بقايا الأساطير الموروثة عن العقل الكنسي، أدركت أوروبا أنّ مسألة امتلاك العالم بشرقه وغربه هي مسألة وقت (إبراهيم بوخالفة، 2018، ص155).

إن التطور المذهل في الحضارة الغربيّة الماديّة بدءا من عصور التنوير، وإلى غاية اليوم، قد قابله تخلّف مكارثي في جميع مناحي الحياة والمعرفة في الشرق العربي والإسلامي؛ واللاّفت أنّ هذا التخلف الذي أخذ شكلا تصاعديّا بدءا من سقوط الامبراطوريّة العثمانيّة، قد أدخل العرب في عصر الشكّ والسلبيّة والتردّد. شكٌّ في الذّات، أنتج تبعيّة مهينة للغرب، وشكٌّ في القيم أنتج استلابا مميتا للعقل والإرادة. وفي مقابل ذلك نجد تضخّما في ثقة الغربيين بأنفسهم وقد انبثقتْ عن ذلك عقيدة التفوّق على الغير ورغبة في استعباده. ولقد سخّرتْ أوروبا جيوشها وعلماءها ومبشّريها وثرواتها من أجل التنظير لمشروع امتلاك العالم عن طريق المعرفة والسلطة، وهما عاملان متلازمان، لا يصحّ التفكير في أحدهما بمعزل عن الآخر. وقد اضطلعتْ بهذه الإرساليّة علوم إنسانيّة حديثة النّشأة ولّدتها الحاجة إلى الآخر. و"لا شكّ أنّ الانثروبولوجيا والاثنولوجيا والسوسيولوجيا الكولونياليّة كانت علوما/خطابات معبّرة عن فكرة التفوّق الغربي وأحقيّته، بحكم هذا التفوّق أن يستبيح سيادة الشّعوب ويستعمر الأوطان"(سعيد أراق، 2015، ص166/165). بيد أن الأبحاث التي وفّرتها أبحاث فقه اللغة بزعامة دو ساسي وتلميذه ارنست رينان كانت أشدّ خطورة وأسوأ أثرا على العلاقات بين الثقافات وبين الشعوب.

فقد ذهب رينان من خلال أبحاثه اللغويّة، إلى أن الأعراق الساميّة متخلّفة وأن تخلّفها هو بحكم الطبيعة والجبلّة ولا يمكن تداركه عن طريق التحصيل العلمي والتربية المستديمة. وهو كما هو واضحٌ حكم فلسفي يتناقض مع روح العلم التجريبي، كما يتناقض مع الرسالة التمدينيّة التي تُبَرّرُ بها أوروبا مشروعها الاستعماري؛ وهو أيضا يتناقض مع العقيدة المسيحيّة التي تؤمن بوحدة النوع البشري. "فالصّورة الضديّة للشرق العبودي، الجاهل، والممتنع عن تلقّي الأنوار هي من الآن فصاعدا صورة مثبتة ومتحجّرة على غرار آسيا نفسها"(هنتش تيري، 2004، ص208). ويتعيّن على الغرب في هذه الحالة الحضور إلى عين المكان لرجّ الصورة وتحريكها وشحنها وبعث الحياة فيها، ولا يكون ذلك إلا من خلال الاستعمار الذي يتحوّل إلى عمليّة مثاقفة عن طريق الإكراه.

يرى ماركس "المتعاطف" مع معذّبي الأرض، ومع الشعوب المقهورة أن الاستعمار هو الأداة غير الواعية للتاريخ من أجل تحديث العالم الذي يمرّ بالضّرورة عبر تدمير النظام الإقطاعي وماقبل الرّأسمالي؛ ذلك أن الرأسماليّة باعتبارها ممرا ضروريا نحو خلاص البشريّة هي مرحلة مؤقتة تفضي إلى مجتمعات دون تمييز طبقي. لم يتمكن ماركس من التخلص من عقابيل المركزيّة الغربيّة، فهو مفكر غربي حديث ويتسلل إلى وعيه ما يروج من كليشيهات عن الآخر الغريب والنّائي الذي يشكّل تهديدا جديّا محتملا. لقد كان يرى في المجتمعات الشرقيّة مجرّد تجمّعات لا ترقى إلى مستوى الدّولة بالمفهوم الغربي، ولا الأمّة، و"إن هذه التجمّعات القرويّة والشّاعريّة، مهما بدتْ مسالمة وهادئة، كانت على الدّوام القاعدة الصّلبة للاستبداد الشرقي؛ لقد كانت قيدا على عقل الإنسان حبَسَه في أضيق دائرة ممكنة، جاعلا إيّاه أداة الخرافة التي لا تعرفُ معنى المقاومة"(هاردت مايكل ونيغري أونطونيو،

2002، ص186). ومن هنا أصبح إزعاج سكينة تلك التجمّعات الهادئة من واجبات أوروبا الأخلاقيّة بما حبتْها الطبيعة من فضائل.

لقد قسّم المشروع الكولونيالي العالم إلى معسكرين متضاربين: مركز تقابله أطراف يجبُ إلحاقها وضمّها وإخراجها من طور الطّبيعة إلى طور الثقافة، وهي مهمّة تخضع لاختبار الزمن، وتشترط الاحتلال الذي يعقبه احتواء. ليس للشرق "مصير خاص جدير بالاهتمام؛ فإمّا أن ينصهر في العالمي الغربي وإمّا أن يُغرِقَ في اللاّمعنى"(هنتش تيري، 2004، ص273). ها قد عثر ماركس على المسوّغ التاريخي للاستعمار، كما قد عثر رينان وغوبينو على المسوّغ الأخلاقي، ومن ثمّ تتخلّص أوروبا من عقدة الذّنب التي قد تزعج سكينتها بسبب احتلالها لشعوب خارج حدودها.

تسعى الماركسية فيما يبدو وعلى الطريقة الغربية إلى إخراج المجتمعات الآسيويّة من اللامعنى من خلال الاستعمار. "إنها طريقة أخرى وأخيرة لإنكار الآخر؛ مركزيّة أوروبيّة ليستْ في صميمها سوى التعبير الفكري عن تفوّق الغرب المادّي السّاحق على العالم"(هنتش تيري، 2004، ص273/272). للحضارة سماتٌ وعلامات، ومؤشّرات تطوّر، وعلى أساس ذلك يمكن تصنيفها بكونها أسمى أو أدنى من غيرها. غير أنّ ذلك لا يبرّر فرضها على الآخرين.

إنّ فرض تفكيرنا وأساليب عيشنا، ورؤيتنا للعالم على آخرينا هو تجريدٌ لهم من إنسانيّتهم وإنكارٌ لغيريّتهم. لقد تعوّد الإنسان أن يطلق على كل من لا يخضعُ لنظامه الثقافي ولا يشبهه صفة البربريّة (تزفيتان تودوروف، 1999، ص21). وذلك هو شأن المستشرقين الذين ينظرون إلى الشرق من منظور الذّات، دون أن يحاولوا وضع تحيّزاتهم الثقافيّة والإثنيّة جانبا، ودون أن يتقبّلوا أن الآخر مختلفٌ بالضرورة عن الذّات وأن غناه وبهاءه في اختلافه.

3-صورة الشرق في رواية "رحلة بالداسار":

3-1-صورة الذّات المسيحيّة:

نحاول الآن الولوج إلى العالم الروائي لأمين معلوف من بوّابة أكثر الروايات تمثيلا لتصوّرات المستشرقين عن الشرق الإسلامي، وهي رواية "رحلة بالداسار". تعرض علينا الرّواية الشرق باعتباره ملتقى لأعراق بشريّة متنوعة ومختلفة إلى حدّ العدائيّة.

عربٌ ويهود وأتراك وأكراد وأرمن وأوروبيون، كلهم قد حُشِروا في ركن من أركان الشرق المتخلّف. إنها الامبراطوريّة العثمانيّة في حالة احتضار، يصوّرها لنا بالداسار وهو يجوب الشرق طولا وعرضا، بعيون غربيّة ناقدة، من خلال رحلة شاقة قادته من جبيل إلى القسطنطينيّة، مرورا ببلاد الشامّ، ومن القسطنطينيّة إلى جزيرة كوس، ثم إلى أوروبا ليعود بعدها إلى القسطنطينيّة، بحثا عن المعرفة المفقودة، وعن الهويّة الضّائعة في بلاد الأغراب والبرابرة. كانت هجرة بالداسار تهدفُ إلى البحث عن كتاب مقدّس لدى المسيحيين. إنها رحلة البحث عن المعرفة، وقد تحوّلت إلى البحث عن الذّات المبعثرة في الفضاء العثماني. وقد اصطحب معه امرأة مسيحية تزوجها عربي وتخلى عنها. وكانت "مارتا" تسعى إلى التأكّد من حقيقة وفاة زوجها والحصول على إثبات يمكنها من التحرر من زوج غائب دون مبرّر. وقد تعهّد بالداسار بحمايتها من مخاطر الطريق ومساعدتها في البحث عن زوجها، وإنقاذها منه إذا رغبتْ في ذلك. لقد بدتْ صورة باداسار مشرقة وباهرة. فهو ذو الخلفية المسيحيّة قد تحول إلى رسول منقذ للمعذّبين في الأرض، بدءا من إدريس الشخصيّة البائسة مرورا بالبدوي الذي تعرّض لاعتداء قطّاع الطرق وانتهاء بمارتا التي تخلى عنها زوجها وسجنها أهل الزوج.

وقبل ذلك، ومع مطلع الرواية، يصوّر لنا الرّاوي مجتمعه المصغر الذي أقامه في قلب الشرق النابض، في مدينة جبيل بلبنان. "كان متجرنا من بين كل متاجر التّحف ومن مائة عام، أكثرها تنوّعا وشهرة في المشرق. وكان الزبائن يقصدوننا من كافّة أرجاء

المعمورة، من مرسيليا ولندن ولولونيا، وأنكوتا، وكذلك إزمير والقاهرة وأصفهان" (أمين معلوف، 1997، ص9). نلمس في هذا المقطع السّردي تأكيدا على محوريّة الوجود المسيحي في الشّرق. لقد كانت عائلة بالداسار تستقطع العالم المسيحي من كل الشعوب الغربية والشرقيّة بفضل ما أحاطت به نفسها من أسباب المجد والنبالة. إنّ الحسّ الحضاري والذّوق الفني الرفيع يقف وراء كاريزميّة الشخصيّة المسيحيّة؛ وإنّ المكان الذي يمرّ عليه الغربي لن يبقى كما كان متخلفا.

أقام بالداسار مزارا عالميّا في بلاد الغرباء، وسيّجه برموز ثقافيّة موصولة بأماكن الألفة. لقد أضحى متجره سوقا عالمية، وصومعة لكل صلوات الأرض، وبكل لغات العالم، يأتيه الناس من كل أركان اليابسة، من شرقها ومن غربها. إنّه شكل من أشكال التّمركز حول الذّات. فنظرته لعالمه المصغر هي نظرة عُجْب، وفخار، إلى درجة تذوب معها عوالم الآخرين. "إنّ جماعة من البشر تعيش على بضعة هكتارات من الأرض ستقيم حدودا بين أرضها ومحيطها المباشر، وبين ما هو خارجٌ عن ذلك، وتسمي ما يقع عبر حدودها "أرض البرابرة" (سعيد إدوارد، 2001، ص84). إن هذا التفكير المنوي، أي تحديد مكان مألوفٌ في مخيال المرء وتسميته مجال"نا"، ومجال غير مألوف خارج مجال"نا"، وخارج مداركنا وتسميته مجال"هم" لهي طريقة اعتباطيّة في تقسيم العالم إلى أماكن للألفة وأخرى للغرابة. إن الجغرافيا التخيّليّة من نمط "أرضنا–أرض البرابرة" لا تشترط أن يعترف من نسميهم "برابرة" بهذا التقسيم، رغم مسعانا لفرضه على أرض الواقع.

2–3–الصور الرهابيّة:

أول ما يلفتُ انتباه العين المقارنة في مطلع هذه الرواية الطرق الوعرة، التي تتخلّل الجبال والوهاد صعودا وهبوطا، وأسراب الناموس والذباب التي تغزو الفضاء، ويبدو أنّها عثرت على موئل وموطئ قدم في بلاد الشرق. أضف إلى ذلك فأنت قد تصلُ إلى قرية من القرى لتجدها تحت وطأة الأمراض والأوبئة التي تتغذّى من أجساد الآدميين الّذين يعبرونها. إنها المشاهد الأكثر تردّدا في تجربة بالداسار الطويلة.

بينما قافلة بالداسار في طريقها إلى القسطنطينيّة وتحديدا في قرية الخيّاط حيثُ توقفت القافلة لليلة واحدة، لتستأنف الرحلة من ثمّ إلى وجهتها، يسترجع الراوي بعض مشاهدها: "فلم أعد أذكر أسراب الناموس، والجدران المعفّنة والمتصدّعة، وسيول المياه الآسنة.....وقد قضيتُ الليل بطوله أتقلّبُ في فراشي، وأصفّق بيديّ كلّما طنّ نشيدٌ متوعّدٌ في أذني"(سعيد إدوارد، 2001، ص20) هي اللوحة المتكررة والمستعادة والأشدّ تعلّقا بالذّاكرة لدلالتها البليغة على العنصر البشري الذي يصنعُ هذه الأوضاع البائسة التي تضاعفُ من معاناة المرتحلين في الفضاء العثماني. فإذا أضفنا إليها مشهد قطّاع الطّرق الذين ينتشرون عبر الطرقات الملتوية ليلتفوا على ضحاياهم فإننا نسقط حقّا في العالم المنحطّ الذي تحدّث عنه جورج لوكاتش في تنظيره للرواية الواقعيّة. "لصوص! كانوا لصوصا! وقطّاع طرق! كان رجل ممدّدا تحت شجرة جوز عاريا وشبه ميّت (.....) بالإمكان رؤية الدم يلطّخ جبهته ولحيته"(سعيد إدوارد، 2001، ص49). إن طرق الشرق غير آمنة بسبب قطّاع الطّرق وما يتخللها من قاذورات وروائح كريهة ومسالك وعرة، لم تصلها الحداثة الغربيّة.

تكمن دلالة هذه الصورة الرهابيّة في جوهر البنية العدوانيّة للشخصيّة الشرقيّة التي تزدري الروح الإنسانيّة باحترافيّة بالغة الخطورة. فإذا كان قطّاع الطرق حاضرين في المدن والقرى والطرقات، فإن حماية السلطة القائمة في البلاد غائبة تماما. وقد يُصوَّرُ حضورها أحيانا باعتباره عاملا إضافيّا من عوامل اللاأمن واللاسلم. يشير بالداسار مرّات عديدة أنه تجنّب بعض الطرقات لعلمه بوجود كثيف للجنود الإنكشاريين الذين كثيرا ما يستولون على أموال القوافل التي تعود ملكيّتها للأجانب. ******

لقد كانت علاقة هؤلاء الجنود عدائيّة مع السكان المحليين؛ فبدل أن يحفظوا الأمن أضحوا مصدر تهديد للمسافرين. وإن كلّ روايات أمين معلوف التي تتّخذ من الشرق مكانا للسّرد، "رحلة بالداسار" "التائهون" "بدايات"، "تقدّمُ صورة نمطيّة عن العثماني؛ فهو الانكشاري البغيض والمرتشي والممقوت من عامّة الناس. وهو الحاكم المستبدّ الذي ينهبُ أموال الناس بأشكال قانونيّة. وهو الرجل المتوحّش والبربري"(إبراهيم بوخالفة، 2018، ص230). ولأنّ اختلاف الآخر مطلقٌ في العقل الاستشراقي المانوي، فإنّه من الممكن قلبه رأسا على عقب في لحظة ثانية كأساس لتحديد الذّات. "بعبارة أخرى تصبح صفات الشرّ والبربرية والفسق والفجور العائدة للآخر (.....) هي التي تجعل صفات الخير والطيبة والتحضّر والاحتشام لدى الذّات الأوروبيّة ممكنة"(هاردت مايكل ونيغري أونطونيو، 2002ص، 198).

أثناء رحلته إلى القسطنطينيّة اصطحب بالداسار معه امرأة من جبيل تُدعى "مارتا"، وقد رحل عنها زوجها بعد أن سلبها كل ثروتها ولم يعد كما وعد بذلك. وقد أجبِرتْ على لزوم البيت العائلي الكبير ومُنِعتْ من مغادرته حفاظا على شرف الزوج الغائب. غير أنها سئمت نمط حياة المرأة الشرقيّة المحافظة، ورغبتْ في التحرر من تقاليد لا تعنيها، فهي امرأة مسيحيّة. بسبب ذلك، تواطأت مع بالداسار وصحبته إلى القسطنطينيّة لتبحث عن زوجها، أو لتتحقق من إمكانية وفاته أو إعدامه من طرف السلطات التركيّة. وقد وعدها هذا الأخير بالحماية والسعي من أجل معرفة مصير زوجها. فكان يتردّد على دور القضاء لمعرفة ما إذا كان سيّاف قد أعدم من أو سُجِن من طرف السلطات القضائيّة، وقد كلّفه هذا التردّد جزءا كبيرا من ثروته في شكل رشى يدفعها للإدارة العثمانيّة من أجل الحصول على الخدمة المطلوبة.

دلّه أخيرا عاملٌ عثماني على مكان تواجد المدعوّ "سيّاف"، الذي لجأ إلى جزيرة كوس، وهي جزيرة يونانية متاخمة لبحر إيجه، وتابعة سياسيا للدولة العثمانيّة. توجّه بالداسار مصحوبا بمارتا هنالك. فإذا نحن أمام مشاهد حضاريّة ساحرة، تنسينا متاعب الإنكشاريين، وقذارة فضائهم الجغرافي، وشوارع مدنهم العتيقة، التي تتخللها برك الماء الآسن، والحشرات المؤذية، والروائح الكريهة. كانت منازل جزيرة كوس "جميلة، وشوارعها نظيفة ومرصوفة بعناية، ونساؤها يتنزّهن بأناقة، وعيونهنّ تبتسمُ للغرباء"(أمين معلوف،1997، ص236) إنّها صورة هوسيّة عن جزيرة أوروبيّة لم يعمرها الانكشاريون، فبقيتْ تشهد على هويّتها وتاريخها، وأصولها الحضاريّة. استشعر بالداسار الحنين إلى أرض الأسلاف، وإلى عائلة امبرياتشي التي ينتمي إليها.

لقد رسم باداسار لوحة مشرقة بكل معاني الجمال والنظام والاتساق بين الطبيعة وبين العقل الغربي، من خلال وصفه للجزيرة ولسكانها من النساء والرجال، فكان كلّ حيّ فيها يرحّب بالغرباء ويحتضنهم، في إشارة واضحة إلى ما يجده زوّار الشرق العثماني من جفاء وسوء معاملة من طرف الإدارة، واعتداءات من طرف قطّاع الطّرق.

كلّ الشرق مساحة للعذاب والإقصاء والكراهيّة. أثناء رحلة العذاب من جبيل إلى القسطنطينيّة ورد قول بالداسار ما يلي: "كلما أوغلتُ في الأزقّة شعرت بنفسي مراقبا، ملاحقا ومحاصرا. هل كنت ضحيّة تهيآت؟ ندمتُ لتوغّلي في هذا الحيّ بمفردي

(.....)، فاثنان من هؤلاء الرجال يسيران أمامي؛ ولما التفتُّ رأيتُ رجلين آخرين يسدّان عليّ كل المنافذ، (....)، تخيلت نفسي مطعونا بسكين قبل تعرّضي للسلب (أمين معلوف، 1997، ص 59). كان بالداسار في تلك الأثناء قد خرج يبحث عن تاجر

أرمني ليشتري بعض ما يحتاجه المسافر، وقد أظلم عليه الليل فوقع تحت عدسة اللصوص وقطّاع الطرق الّذين يجدون الشرق مكانا أثيرا للتكاثر والتناسل. إنها الطريقة المثلى للترحيب بالغرباء في بلاد الإنكشاريين.

نتابع باداسار في رحلته إلى القسطنطينيّة، فقد كتب: "فبعد أربعة أيام من السفر صعودا إلى جبال طوروس، وسلوك طرقات ضيّقة في أغلب الأحيان، ومحفوفة بالأخطار وصلنا إلى هضبة الأناضول، وبعد الإقامة في خانات وضيعة، موبوءة بالجنود الإنكشاريين المرتزقة (....) الّذين يجبرنا حضورهم على القبوع في غرفنا، (....) أسعفنا الحظّ فأقمنا في نزل لائق" (أمين معلوف، 1997، ص88). إن هذا النزل الذي أقام فيه بالداسار تعود ملكيّته إلى رجل جنوي، وقد أشعره جواره بالألفة والسكينة والتوافق الروحي، نظرا لحالة اللاّأمن التي يستشعرها خارج الدّائرة الضيّقة لعالمه المسيحي الأوروبي. ما أن يغادر بالداسار مكان الألفة حتى يستشعر تهديدا في ذاته ومحيطه الداخلي.

لقد رصدت عينه المقارنة أثناء الطريق كل ما من شأنه أن يكون رمزا ثقافيّا من رموز الشرق بكل تناقضاته الإيديولوجيّة والأخلاقيّة. من ذلك مثلا ضيق الطرقات، ووعورتها، وتضاريسها التي تسمح بانتشار قطّاع الطرق، الّذين يستوون مع الجنود الانكشاريين في خطورتهم وما يسببونه من متاعب للأجانب من أصحاب القوافل التجاريّة. الشرق المقدَّم إلينا في هذه الرواية هو نظام من التمثيلات مؤطّر بطقم كامل من التّشويهات والنّدوب والخدوش التي تحفر عميقا في اللاوعي الغربي.

كانت أوروبا تُخزّن في أرشيفها قدرا هائلا من الكراهية والرهبة لهذا الرجل المريض. وهي من خلال هذا التمثيل السّادي تحتفي بسقوط الضحيّة ووقوعها تحت مخالبها. يظهر بالداسار، ومن ورائه أمين معلوف قدرا هائلا من العدائية للعثمانيين. لقد شكّل هؤلاء عبئا حقيقيا على اللبنانيين لما كانوا يبسطون سيادتهم على كلّ أنحاء الشرق العربي والإسلامي. وكان وجودهم غير مرغوب فيه، وهي الحقيقة التي استغلها الاستعمار الفرنسي لبسط سيادته على الشرق الأوسط ودعمه للنزعة الاستقلاليّة عن الامبراطوريّة العثمانيّة. إنه الوعد الذي قدّمه بونابارت للمصريين أثناء حملته الناجحة، وها هو اليوم يقدّمه للبنانيين من أجل تفتيت العالم الإسلامي. والمضيّ بعيد في مشروعه الكولونيالي.

3-3-التمركز حول الدّين:

يرى منظّرو المركزيّة الغربيّة أنّ المسيحيّة هي التظاهرة الثقافيّة الكبرى في التاريخ، وأنّ الإسلام هو صورة منقوصة ومعيبة عن المسيحيّة. قد يكون محمد (عليه الصلاة والسلام) -من منظورهم طبعا-، درس المسيحية من مصادرها المتوفرة لديه، واحتكّ بالمسيحيين أثناء رحلاته إلى الشام، وقد يكون تعلم عنهم الكثير من أصول المسيحيّة، ثمّ ألّف ما سمّاه القرآن الكريم مخالفا بذلك الكثير من أصول المسيحيّة "الحقّة"، ثمّ ادّعى أنه رسولٌ عالمي رغبة منه في زعامة تاريخيّة موهومة.

وقد كشف المسيحيون خلال تاريخهم الطّويل أنّ "الإسلام هو نفي للعقل وإلغاء لإنسانيّة الإنسان، وللمجتمع المدني، وهو تكبيل للحريّات الفرديّة. وحده الحاكم حرٌّ ويفعل ما يبدو له مناسبا لموقعه الطبقي. يقول هيجل أن المبدأ القائل "بأنّ الإنسان من حيثُ هو إنسانٌ له قيمة مطلقة لا وجود له في الديانات الشرقيّة، بل إنه في المسيحيّة فقط أصبح الناس لأول مرّة أحرارا"(حسن حنفي، 1976، ص268). ويبدو لنا أنّ هيجل من خلال هذا الموقف المشبع تحيّزا وعنصريّة قد تناسى محاكم التفتيش

في أوروبا، وتجاهل الحكومات التوتاليتاريّة، وحالات الاستعمار التي اشتدّت وتيرتها في حياة هيجل، كما أنه تناسى الحروب الأهليّة التي عصفت بأوروبا خلال القرون الوسطى؛ كل ذلك اختفى في فلسفة هيجل، ولم يظهر إلا مشهد العثمانيين وانحرافاتهم التي لا تبدو شيئا مذكورا إزاء فضاعات التاريخ الأوروبي الوسيط والحديث.

تلك هي صورة الإسلام في مخيلة المستشرقين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وإلى غاية يومنا هذا. إن الرجل المسيحي، مثقفا كان أم أميّا، عالما كان أم جاهلا، لا يمكنه أن يكون مسيحيا مخلصا ويتعاطف مع مجتمع إسلامي. لقد كانت كراهية بالداسار للعثمانيين أمرا مفروغا منه؛ بل إنّ كراهيته ترقى إلى مستوى العقيدة؛ فقد كانت كراهيته لسيّاف زوج "مارتا"—وهو عربي مسلم–، لا حدّ لها. وكان حنقه على رجال الإدارة العثمانيّة والجنود الانكشاريين تلقي بظلالها على البنية السردية لهذا العمل الروائي الجليل. إن عدد الشخصيّات الروائية التي تلتحم لتشكيل مسارات البنية السّرديّة هو بالعشرات؛ غير أنّ الشّخصيّات التآلفيّة كلها شخصيات مسيحيّة أو يهوديّة، وهي في غالب الأحيان أوروبية المنبت، ومن نفس المرجعيّة الحضاريّة لبالداسار الذي يحيط نفسه بالفضيلة الأخلاقيّة المطلقة والاعتباطيّة. إنه يحتفي بذاته في مقابل ازدراء الشرقيين. "إنّني أنسى الإسادة بطبيعتي، وأنزع دوما للعفو عنها بسبب سماحة طبعي" (أمين معلوف، 1997 ص48). لقد دأب المسيحيون على وصف المسيحيّة بدين التسامح والعفو عن الآخر وقبوله، في مقابل وصف الإسلام بالعدوانيّة ورفض الآخر، والسّعي لنفيه. وقد تكفّلت الانثروبولوجيا الغربيّة بالترويج لآخريّة الإسلام والمسلمين، وتجلّى أثر ذلك في أدب الرحلات والسرد الروائي.

فرفقاء بالداسار في الرّحلة من جبيل إلى القسطنطينيّة، عدا أهل عائلته، هم يهود تجار. والعائلات التي كان يتردّد عليها هي عائلات مسيحيّة من أصل جنوي. وقد كانت هذه الشخصيّات تقوم بدور الرّافد الروحي والمعنوي الذي يُمِدُّ بالداسار بالجرأة الإنسانيّة من أجل متابعة إرساليّته المتمثّلة في إنقاذ المرأة المسيحيّة من مخالب "الوحش" العربي المدعو "سيّاف". فالرجل الأبيض ينقذ المرأة من الرجل الملوّن. "رجلا كان الجميع يعلمون بأنّه من حثالة القوم، وينتمي أصلا إلى أسرة الأوباش، والنصّابين والأفّاقين، واللصوص وقطاع الطّرق، ومغرقي السّفن"(أمين معلوف، 1997، ص28). كل هذه المثالب الأخلاقيّة لصيقة بالذّات العربيّة من منظور الفكر الاستشراقي الحديث والمعاصر، والذي يتغيّر هو شكل التسمية، أما جوهر التوصيف والتصنيف والتعيين فهو نفسه.

إنّ كراهيّة بالداسار لسيّاف تعود إلى مرحلة الشباب، عندما اختطف منه مارتا. فقد كان ينوي الزواج منها، قبل أن يسبقه إليها سيّاف. ولما تخلّى عنها هذا الأخير لم يتفهّم بالداسار الأعراف الإسلاميّة التي تمنع المرأة من التصرّف في حياتها، في انتظار أن يعود الزوج الغائب، إذا كان غيابه مجهول الأسباب. إنّه يفكّر فيها بعقله الغربي الذي يخوّلُ للمرأة ما يخوّله لزوجها على قدم المساواة. وهو يعاشرها قبل أن تصبح زوجته وقبل أن يتأكّدا من وفاة الزوج وترمّلها، ولا يرى في ذلك حرجا، رغم أنّ ديانته تحرّم ما يحرّمه الإسلام.

إنّ بالداسار مثله مثل المسيحيين من عامّة الناس يبحثُ عن مسيحيّة دون أعباء ميتافيزيقيّة. لقد طوّر الغربُ نظرة مغايرة للدّين، "تتجاوز النزعة التقديسيّة والتّعبّديّة التي كانت سائدة وفاعلة طوال العصر الوسيط"(تزفيتان تودوروف، 1999، ص231). وبناء على هذه النظرة العَلَمانيّة يحدّد الغربيون موقفهم من الشرق ويدينون طريقة الشرقيين في ممارسة طقوسهم الدينية، وينعتونهم بسبب ذلك بالأصوليّة والإرهاب.

من منظور الفلسفات الغربية الحديثة، انسحب الدين من الحياة العامّة وأصبح شأنا خاصا يتعلق بالإيمان الفردي، في حين كان سابقا ولآلاف السنين مؤسسة عامّة تخصّ الدولة والجامعة والكنيسة. إنّ نزع القداسة عن الدّين الذي انبثق عن حركة تحديث المجتمعات الغربيّة، عقب الثورة الفرنسيّة قد قلب موقف الغربيين من العالم رأسا على عقب، كما أنه أعاد تشكيل الموقف من الآخر بشكل جذري، وهذا الذي نحاول الكشف عنه من خلال رحلة بالداسار بين مدن الإمبراطورية العثمانية. كذلك رأينا أن موقف بالداسار من المسلمين موقفٌ عدائي، بينما رأيناه متآلفا مع العنصر المسيحي واليهودي. فالذّات تختفي بشبيهها القومي والاثني، وتبعا لذلك تأتي لغة الانتماء القومي مشحونة بضروب الدّفاع عن الأسلاف ذات المغزى الأخلاقي. كما ألفيناه يتواصل بكل حميميّة مع العنصر اليهودي؛ بل إن كثيرا من كبار أصدقائه أثناء الرحلة وبعدها هم من اليهود. بعد أن طُرِد من جزيرة "كيوس" من قبل العثمانيين، التقى تاجرا يهوديا لا يعرفه من قبل. غير أنّ هذا الأخير يعرف أسلاف بالداسار من عائلة امبرياتشي، بسبب اشتهارها في الحروب الصليبيّة. ما أن التقاه حتّى عبّر عن سعادته باستضافته، كما عرض عليه أن يزوجه ابنته رغم صغر سنّها. " جذبني من ذراعي وسألني: "هل تمنحني شرف الإقامة في داري؟ كنت لا أعرف أين أذهب، ولا أملك قرشا واحدا جنويا أو عثمانيا، فرأيت في هذه الدّعوة تدخلا من العناية الإلهيّة. (.....). كان من الواضح أنّني على الرحب والسعة في دار السيد غريغوريو؛ لا بل خالجني الشّعور الغريب بأنه يترقب عودتي إلى ذلك الرصيف في مرفأ جنوى منذ مئات السنين" (أمين معلوف، 1997 ص 263/262). يكفي أن يكون الرّجلان أحدهما مسيحي وآخر يهودي لكي يتآلفا وينسجما، ويقيم أحدهما عند الآخر، ويتزوج ابنته من أجل إحياء ماضي الأسلاف المجيد. ويكفي أن يكون أحدهما مسيحيّا والآخر مسلما لكي تكون العلاقة بينهما متأزّمة. فالشرق لن يلتقي مع الغرب.

وإنّ مثل هذه العلاقات تؤشّر للتحالف المسيحي-اليهودي الذي بشّرتْ به حقبة ما بعد الحداثة. فاليهودية قد حصل استيعابها من قبل الثقافة الغربيّة وأضحتْ من مكوناتها، مادامت اليهوديّة هي الأخرى قد امتصّت الحداثة الغربيّة بكل حساسيّاتها وتداعياتها السياسيّة والإيديولوجيّة. إن معظم فلاسفة الغرب في حقبة الحداثة وما بعد الحداثة هم من العنصر اليهودي، وهم جزء مكون للمجتمعات الغربيّة. فلا غرابة أن تتقاطع مصالح الغرب مع مصالح الشعب اليهودي بكلّ أطيافه. بينما يظل العالم الإسلامي هو الآخر الذي لا يقبل الانصهار. لقد تقدّمتْ المركزيّة الغربيّة ب"مشروع تجانس الإنسانيّة المستقبلي من خلال تعميم النموذج الغربي"(إبراهيم عبد الله، 2010 ص33)، وقد بدا وكأنّ الشرق رافضٌ لهذا المشروع، ورافضٌ للحداثة الغربيّة، فللمسلمين مركزيّتهم وحداثتهم التي تختلفُ بالضرورة عن نظيرتها الغربيّة.

ولعلّ الإيديولوجيا الإسلاميّة هي من أشدّ الإيديولوجيّات تمنّعا عن الذّوبان في الآخر، ومقاومة للاختراق، وهي متحصّنة بمبدأ الاختلاف. ومما لا جدال فيه أن البشريّة ذات الخصائص المشتركة، والتي تنصّ على أنّ تحيّزنا لحضارتنا يجب أن يعمّ العالم كلّه، كان من أكثر الأساليب البربريّة التي تمخض عنها التاريخ لسحق آخريّة الآخرين (تيري إيغلتون، 2000، ص87). وإنّ تلك العقيدة تقبع من وراء الظاهرة الاستعماريّة اعتبارا من القرن الثامن عشر، حيثُ استفحلتْ ظاهرة التحديث في الغرب، بوصفها "العزوف عن رؤية قدسيّة للوجود، وتأكيد القيم الدنيويّة، أي بشكل إجمالي بوصفها حقبة العلمنة"(جاني فاتيمو، 2014، ص87)، التي تقتضي رفض الدّولة الدينيّة باعتبارها تهديدا للقيم الغربيّة.

لننظر كيف عبّر بالداسار عن توافقه الروحي والفكري مع رجل يهودي تقاسم معه الطريق في رحلته إلى القسطنطينيّة: "تآخينا ولم يكن قد فات على حديثنا خمس دقائق؛ كانت همساتنا تحمل ذلك التناغم الفكري الذي لا يمكن لأيّة ديانة توفيره، ولأيّ مخلوق إطاحته"(أمين معلوف، 1997، ص70). إنّه التلميح المبطّن عن فضيلة التسامح التي تتمتّع بها المسيحيّة باعتبارها ديانة عالميّة. إنّ علاقة بالداسار مع العنصر اليهودي أريد لها أن تكون تمثيلا للبعد الكوني للمسيحيّة، وللحضارة الغربيّة بشكلٍ عام، بين أريد التمثيل لدونيّة العرب والمسلمين من خلال العرب والعثمانيين. ولقد أسقط عليهما الروائي كلّ أشكال الدونية والوضاعة.

ورغم أنّ صداقة بالداسار وميمون حديثة النّشأة، إلاّ أنّه لما دعاه إلى المبيت في بيت أحد أقاربه، لم يتردّد في قبول الدّعوة؛ يعبّرُ بالداسار عن حالة الرضا والقبول التي استقبل بها دعوة اليهودي من خلال قوله: "غير أنّ فمي أجاب في اللحظة نفسها بأنّ من دواعي سروري تلبية دعوته؛ ولئن استغرب ميمون هذا التسرّع، فهو لم يُظهر تعجّبا، بل أعرب عن فرحه بشهادة الصّداقة تلك"(أمين معلوف، 1997، ص75). كلاهما كان يحتفي بطريقته بهذه الصّداقة؛ اليهوديّ لأنه في عالم ينبذ اليهود، ويعزلهم ويضطهدهم حيثما حلّوا. لقد كان الغرب في القرون الوسطى ينظر إلى اليهود نظرة تحقير، ويعتبرهم الشرّ الماحق، ويصنفهم في أدنى الهرم الاجتماعي. والنّصراني لأنّه مقيمٌ في عالم الانكشاريين البغيض حيثُ تختفي كلّ قيم الضيافة والتّسامح الدّيني والفضيلة. إنّ كلّ الصّور التّمثيليّة التي مُثّلَ بها العثمانيون هي صور رهابيّة تحمل قدرا هائلا من الازدراء تجاه الأجنبي والمختلف. لقد كانت القوّة العسكريّة والتفوّق الحضاري النسبي للعالم الإسلامي في القرون الوسطى، ممثّلا في الامبراطوريّة العثمانيّة، دافعا للتّعالي على الأجانب من مسيحيين ويهود، رغم أنّ الكثير من هؤلاء الرعايا يقيمون في بلاد المسلمين، ولم يكونوا يشكّلون أيّ خطر من أيّ نوع كان. غير أنّ هذا التعالي كان لحظة انحراف عن قيم الإسلام العالميّة، ولم يكن بدافع منها.

لننظر الآن إلى الصّورة التي يبدو عليها بعض العرب الّذين مثّلوا رمز الشرّ والدونيّة. لمّا وصلتْ قافلة بالداسار إلى اسكندرون، طلب أحد المسافرين المسيحيين من قائد الرّكب، –وكان عربيا مسلما–أن يُرجِئ متابعة الرحلة يوما واحدا حتّى يتسنّى للمسيحيين حضور عيد الصّليب في الكنيسة. وكان هذا المسيحي فقيرا ومعوزا وطاعنا في السّنّ. وقد شجّع انتماؤه الطبقي والديني قائد القافلة على الاستهزاء برموز ديانته قائلا: "سوف ننطلق مع بزوغ الفجر، ولا نملك وقتا نضيّعه في الكنائس، ولو شاء معاينة قطعة من الخشب، فما عليه سوى أن يتناول هذه القطعة، –وأشار إلى قطعة عفنة من جذع شجرة مرميّة على الأرض"(أمين معلوف، 1997، ص66). إنّه ازدراء الأديان التي تخالفُ ديننا، وهو ما يُتّهَم به العثمانيّون، وتساقُ هذه التهمة لتبرير مركزية غربيّة ذات طابع عنصري. إن المسيحية من منظور معتنقيها الأوروبين هي التظاهرة الثقافية العليا، وهي التي تنفرد بالحقيقة المطلقة. وقد كان الإسلام بوصفه الدّيانة المهيمنة في القرون الوسطى يزدري اليهوديّة والمسيحيّة. ولقد كشفنا بما لا يقبل الدّحض ومن خلال هذه السرديّة أنّ لليهود معابدهم وللمسيحيين كنائسهم في عمق الامبراطوريّة العثمانيّة. وهي الحقيقة التي لا تنسجم مع سوء تمثيل الثقافة العثمانيّة ونظامهم الاجتماعي في هذه الرواية.

لقد صوّر لنا بالداسار دور القضاء التركيّة وكأنها ساحات للقتل والترهيب. نقرأ في ذلك السياق التمثيلي قوله: "دخلنا إلى الباحة الأولى في القصر مع مئات المتظلّمين الآخرين الّذين كانوا جميعا صامتين كأنّهم في دار عبادة؛ ولكن صمتهم كان بفعل الرهبة التي يوحي بها القرب من ذلك الذي يملك حق الحياة والموت على كل إنسان"(أمين معلوف، 1997، ص 115). إذا كانت المحاكم في الديار الغربيّة رمزا للعدالة والحق والمساواة، وهي مكان يشعرُ فيه المستضعفون بالأمن والسكينة، فإنّ المحاكم في ديار

الانكشاريين هي مكان الرهبة للجميع ظالمين ومظلومين، لأنه يُمارَسُ فيها الاستعباد بكل تجسيداته في حقّ الضعفاء كما في حق الأقوياء. ونعتقد أنّ هذا هو النصّ الغائب في هذه الرواية. المسيحيّة هي ديانة التسامح والرحمة ونصرة المستضعفين، والتعاطف معهم. أمّا الإسلام فقد تحوّل إلى سيف مسلّط على المخالفين والمختلفين. إنه يقطع الرقاب والألسن والأيدي حتى وإن كانت من المجتمع المحلّي نفسه.

بينما مارتا وحبيب يقتربان من باحة المحكمة للقاء عامل تواعدا معه لإطلاعهما على ما يمكن أن يساعدهما في العثور على سياف، إذا بهما يشاهدان منظرا مروّعا. "رأسا مقطوعا على حجر"(أمين معلوف، 1997، ص 112). إنّه الإداري الذي يقصدانه بناء على موعد مسبق. وقد أُعدِمَ وعُلِّق رأسه في بهو المحكمة ترهيبا للناس. إنّه شعار دولة المسلمين ورمز سلطتهم وقوتهم. قد

تكون عشرات الصور الرهابيّة التي مثلت دولة الاستبداد مبرّرا لعزوف بالداسار عن التعامل مع العرب والمسلمين لاعتقاده أنهم مصدر الشر الماحق.

غير أننا لو استنطقنا المسكوت عنه في هذه الرواية، ذلك المعنى الذي يفلتُ من اللاوعي الفردي من خلال اللغة الرمزيّة، فإننا قد نرى الصورة على غير ما يراها بالداسار ولا أمين معلوف الذي يستخفي وراء شخصيّاته.

إن دُور العبادة المسيحيّة تنتشر والمعابد اليهوديّة تنتشر هي الأخرى بصورة لافتة في بلاد المسلمين، وإننا نجد عشرات النصوص التي تمنع المسلمين من التعرض لها في حالتي السلم والحرب. إنّها البرهان القويّ على مبدأ قبول التعايش مع الآخر. كما أن المطاعم الأجنبية والمرافق السياحيّة التي يديرها غربيون كثيرة، بشكل يسمح للأجانب بأن يشعروا أنهم في ديارهم. وهذا أيضا دليلٌ على قبول التعدد الثقافي في الإمبراطورية العثمانيّة. وقد أشار بالداسار في أكثر من موقع أنه يحتسي الخمرة في أكثر من مطعم، ولا أحد من الإنكشاريين يستوقفه أو يسائله.

الخلاصة:

هذه دراسة حول بنية الفكر الاستشراقي، من خلال رواية لكاتب فرونكوفوني من أصول لبنانيّة، وهو ذو خلفيّة مسيحيّة، نشأ نشأته الأولى في محيط إقليمي عدائي، تتنازعه صراعات إثنيّة ودينيّة غير قابلة للتفاوض. هجر بلده إلى فرنسا هروبا من حرب أهليّة مدمرة. ومن هنا نشأت في نفسية هذا المثقف الأقلوي كراهية لا شفاء منها لكل ما هو عثماني وإسلامي وعربي.

أقام في فرنسا وتشبّع بقيمها وآدابها وعاداتها وأنماط عيشها. فكان من الطبيعي، وهو الناطق والكاتب باللغة الفرنسيّة، أن يتشكل وعيه الأدبي والجمالي والإيديولوجي من خلال الثقافة الغربية والفرنسية على الخصوص.

إننا لا نزعم أن أمين معلوف مستشرقٌ ولا هو فرنسي، إلا أنه لم يتمكن من التخلص من بنية الفكر الاستشراقي التي تهيمن على الكُتّاب الغربيين بشكل عام، هو الذي يتعين عليه أن يرمم صورة الشرق في مخيال الغربيين، هذه الصورة التي تشكلت عبر قرون من الاحتراب والاحتقان الأيديولوجي بين الثقافة الإسلامية ونظيرتها الغربية. غير أنه فضّل أن ينحاز إلى السلامة وينساق مع موقفه المتحيز الذي يدين العالم الإسلامي والعربي على السواء.

لقد عملت ثقافة الاستشراق في الغرب على تنميط تفكير الأوروبيين على كراهية العرب والمسلمين وازدراء ثقافتهم وسوء تمثيلهم، وقد اندمج أمين معلوف في الحياة الفرنسية وتشبّع بقيمها ورؤيتها للعالم وموقفها من الآخر، وظهر ذلك جليا في كلّ

رواياته، وفي "رحلة بالداسار بشكلٍ خاصٍ. ولو أننا نقارنه بالكاتب الأمريكي من أصول فلسطينيّة، إدوارد سعيد، الذي ظلّ طيلة حياته يقارع الرواية الغربية والإسرائيليّة لوجدنا الفرق صادما. لقد ظلّ إدوارد سعيد طيلة حياته ومن خلال أطروحاته النقدية يُجْهِد في تقويض الكليشيهات التي يروج لها الاستشراق المتورط في الشرط الامبريالي، بل إنه كان من مؤسسي النقد ما بعد الكولونيالي، إلى جانب هومي بهاها، وتودوروف من أجل خلق عالم متعدد الأصوات. غير أنّ أمين معلوف، رغم كل ما كتبه حول الهويات القاتلة إلا أن عمله الإبداعي يحمل أطروحات استشراقيّة بامتياز.

المصادر والمراجع:

المصادر:

1- أمين معلوف، رحلة بالداسار، ترجمة نهلة بيضون، دار الفارابي-Anep، ط الأولى 1997 بلبنان، ط الثانية 2001 بالجزائر.

المراجع:

1- إبراهيم بوخالفة، أطياف الاستشراق، رؤية للطّباعة والنشر، القاهرة-مصر، ط الأولى 2018.

2-آنيا لومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، اللاذقية سوريا.، ط الأولى 2007.

3-إياد حسن، الثقافة بين الخصوصي والقومي، دار الفرقد للنشر والتوزيع، ط 2008.

4- تيري هنتش، الشرق المتخيّل، ترجمة غازي برو، خليل أحمد خليل، دار الفارابي بيروت-لبنان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط الأولى 2004.

5- تيزفيتان تودوروف، نحن والآخرون، ترجمة ربى حمّود، دار المدى دمشق، ط الأولى 1999.

6- تيري إيغلتون، أوهام ما بعد الحداثة، ترجمة منى سلام، مطابع المجلس الأعلى للآثار، ط الأولى 2000.

7- جاني فاتيمو، نهاية الحداثة، ترجمة نجم بوفاضل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2014.

8- أُنظر حسن حنفي، قضايا معاصرة، ج الثاني، دار الفكر العربي، القاهرة، ط الأولى 1976.

9- سعيد إدوارد، الثقافة والامبرياليّة، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت-لبنان، ط الثالثة 2004.

10- سعيد إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب لبنان، ط الخامسة 2001.

11- سعيد أراق بن محمد، الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، در أسامة للنشر والتوزيع، الأردن-عمّان. ط الأولى 2015.

12-. عبد الإله المقريزي، نقد الثقافة الغربية في الاستشراق والمركزيّة الغربيّة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط الأولى 2017..

13- عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب. ط الأولى 2010

14-مايكل هاردت وأونطونيو نيغري، الامبراطوريّة، تعريب فاضل جتكر، مراجعة د. رضوان السيد، العبيكان للنشر والتوزيع، الرياض، ط الأولى 2002/.